

الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية (*)

مراجعة رضوان السيد

اعتاد كُتّاب التاريخ الإسلامي من المستشرقين والعرب وضع مدينتي الكوفة والبصرة في سياق حركة الفتوحات الإسلامية. لقد كانتا في نظر أكثر الدارسين في البداية معسكرين اقتضت بناءهما ضرورات عسكرية، واعتباراً استراتيجية ملحاحية. وكنت قد ذهبت لذلك أيضاً في أطروحتي للدكتوراه عن «ثورة ابن الأشعث والقراء». ولقد رأيتُ بناءً على ذلك أنَّ المشكلات الحضريّة الضخمة التي ظهرت منذ أيام عثمان، وتفاقت أيام ولاية الحجاج بن يوسف (٧٥ - ٩٥ هـ) مردها إلى تلك العفوية في البناء والتأسيس، وعدم ألفة البدو لحياة المدن. لكنني حتى في ذلك الوقت (١٩٧٥ - ١٩٧٦) لاحظتُ أن العنصر الحضريّ في الكوفة بالذات كان غالباً ومسيطرًا، وأنَّ الأفكار الشيعة التي وجدت في الكوفة بيئةً خصبةً ما كانت أفكار ومذاهب بداءةٍ وقلقي وترحال. كما لاحظتُ وقتها أنَّ حركات الخوارج الثورية، التي كان العنصر البدويّ فيها قوياً، ما وجدت أنصاراً معتبرين بالكوفة رغم سخط فئات كثيرةٍ بالمدينة على الأمويين. بيد أن كلَّ تلك الملاحظات لم تغير من رؤيتي العامة وقتها لشدة تأثير

(*) هشام جعيط: الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية. الطبعة الأولى بالكويت، ١٩٨٦. والدراسة مترجمة عن الفرنسية، وهي في الأصل أطروحة للدكتوراه بالسوربون في منتصف السبعينات.

كتاب شارل پللا عن «الجاحظ والبيئة البصرية» عليّ وعلى آخرين كثيرين من دارسي التاريخ الإسلامي المبكر. وكان هناك من جهة ثانية كتاب قلهاوزن: «الدولة العربية وسقوطها» الأقدم بكثير، والذي يعرض تفسيراً شاملاً للتاريخ الإسلامي الأول يقوم على التناقض بين العرب والموالي من جهة، وبين السلطة المركزية والأقاليم من جهة ثانية. فإذا كان شارل پللا يدرك «البصرة» باعتبارها «فوضى محببة»؛ فإنّ المدينة لا تظهر عند قلهاوزن على الإطلاق. وما كان كتاب أستاذنا صالح العلي عن البصرة شديد الجاذبية بالنسبة لنا؛ لأنه وصفيّ تخطيطي لا يلبي طموحات جيلنا للأدلجة والرؤى الشاملة والقاطعة. وما لفت انتباهي كتاب هشام جعيط آنذاك، رغم أنني رجعتُ إليه، ووضعتُ في قائمة المراجع. وكنتُ قد أعدتُ قراءته عام ١٩٨٣ أثناء تحضيرتي لعددٍ من مجلة الفكر العربي عن «المدينة والمدينة العربية» فأدركتُ سعة القفزة التي حققها جعيط في مجال دراسات المدينة الإسلامية. وحاولتُ تحليل عدم إدراكي السابق لأهمية العمل بالقول إنّ ذلك يعود لقلة معرفتي باللغة الفرنسية، ولنفوري من طرائق المثقفين بالفرنسية، في الكتابة. لكنني من مراجعتي للملاحظات الشخصية التي كتبها علي حواشي الصفحات آنذاك، أيقنتُ أنّ السبب الحقيقي يعود لفكرتين اثنتين يؤكّد عليهما الكتاب، ولم استطعُ آنذاك استساغتهما: أنّ عمر بن الخطّاب كان يعتزم الاقتصار في الفتح الإسلامي على العراق، وأنّ بناء الكوفة (كالبصرة) لم يكن عفويّاً على الإطلاق. ومن الحقّ أن يقال هنا إنّ في تاريخ الطبري، وفتوح البلدان للبلاذري نصوصاً وأخباراً تؤيّد المقولتين. لكنّ وعي آنذاك كان أنّ الجهاد اكتساح للعالم، وليست فيه حساباتُ أين يبدأ وأين ينتهي. وأنّ فكرة «المعسكر» المؤقت بالنسبة للبصرة والكوفة هي الأليق بتلك النظرة لجهاد المسلمين الأوائل، وتحركاتهم السياسية والعسكرية ولم أدرك وقتها أنّ تقليديتي هذه في الفهم والرؤية تؤدّي إلى ما قال به المستشرقون بل ورجال التاريخ العام بالغرب حتى منتصف هذا القرن من أنه ليست هناك في الحقيقة «مدن إسلامية» لأن مفهوم المدينة الذي يملكونه من خبرتهم مع مدنهم لا ينطبق عليها. ويتصل ذلك من جهة ثانية بالرؤية السائدة عن الإنسان الشرقي، والسلطان

الاستبدادي الشرقي، والمنظومات الشرقية الشاملة التي لا تُساعد على نشوء مجتمعاتٍ مدنيةٍ (اقرأ: حضرية).

تقع دراسة هشام جعيط المعربة في ثمانية أبواب، وينقسم كل باب فيها إلى عدة فقرات. أما الباب الأول فينشغل بالفتح العربي للعراق، وتأسيس الكوفة. وأبرز أفكاره تأخر الفتح سنتين عن رواية سيف بن عمر؛ دون أن يعني ذلك أن سيفاً ليس دقيقاً في كثير من التفاصيل. والحق أن كابتاني (في حوليات الإسلام، والكرونوغرافيا) كان قد ذهب إلى مثل ذلك دون أن يستطيع تعليله تعليلاً دقيقاً. والفكرة الثانية أن بناء الكوفة جاء إيذاناً باختتام مرحلة من مراحل الفتح العربي، ما كان عمر يخطط لأبعد منها على ذلك المحور آنذاك.

ويدرس الباب الثاني مخطط المدينة الأول مناقشاً مخطط ماسينيون بشكل نقدي تصحيحي؛ فيثبت لديه أن الكوفة مدينة مكتملة مخططاً لها، تدل على ذلك نصوص المؤرخين الأوائل، كما تدل عليه حقيقة أن الكوفة استوعبت أعداداً هائلة من السكان دون أن يطرأ على تخطيطها تعديل جذري حتى نهاية العصر العباسي الأول حين بدأ التطور العكسي لمنافسة بغداد لها. وفي الباب الثالث يناقش المؤلف رؤية الاستشراق التقليدي للمدينة الإسلامية باعتبارها سيورة من النظام إلى الخلل، ومدينة بدون ذات، وعفوية المنشأ والتطور. والكوفة خير دليل من وجهة نظر جعيط على عدم صحة ذلك على الإطلاق. على أن دراسات السبعينات والثمانينات بالغرب للمدينة الإسلامية غيرت كثيراً من وجهة النظر هذه لدى كثيرين منهم - ودراسة يوهنسن المنشورة بهذا العدد من الاجتهاد - من الأدلة على التغير الحاصل.

ويبحث الباب الرابع في الجذور والتأثيرات من بابل إلى مكة. فيدرس قوى الماضي المؤثرة في المدينة المنشأة في الإسلام - من الشرق القديم وحتى الهيلينية وامداداتها - ثم يتأمل الإرث العربي القديم الممكن. وأحسب أن هذا الباب هو أضعف فصول الكتاب أو أقلها أصالة إذ إنه يكاد يقع فيما حاول الهرب منه: النمذجة تارة، والبحث عن الخصوصية تارة أخرى؛ وهو في ذلك واقع تحت تأثير مدرسة الحوليات الفرنسية من هنري بيرين وإلى كلود كاهن. ويأتي بعد

هذا الباب الخامس، وهو أفضل أجزاء الكتاب وأكثرها أصالة، ويحمل العنوان: التمدين والاستقرار، الذروة التاريخية. وهو يتضمن الفقرات التالية: المجهود المعماري، التمدين والتنظيم، الكشف عن الكوفة: ثورة المختار، وشبيب: استطلاع ثان. في هذا الباب تبدو المدينة الإسلامية في حالة العمل والفعالية والصراع من أجل التوازن. ولأنّ تاريخنا حيّ في وعينا فإنّ شوارع الكوفة وحاراتها وأزقتها تبدو للقارئ حية ومتناغمة تزيد بها على المستوى الشعوري حيوية أسلوب المؤلف توهجاً وازدهاراً في حياة عارمة متوفرة ورائعة. وتدرس الأبواب الثلاثة الباقية ما يمكن تسميته بأفاق حياة الكوفة وتطوراتها: الكوفة بعد الأمويين، والكوفة في مواجهة بغداد، وأخيراً: مصير الكوفة وهويتها.

هذه خطوط عامة جداً لكتاب الكوفة، الذي كتبه مؤلفه بأسلوب شخصي حار بقي ظاهراً رغم رداءة الترجمة. وبسبب «شخصية الأسلوب» يحتاج المرء إلى قراءة ذاتية للكتاب لاستقبال أنفاس المدينة العربية الإسلامية وهي تشرق وتطلع، ثم وهي تقرّ وتستقرّ وتحوّل إلى أسلوب حياة. وقد نبّه المؤلف إلى خصوصية الكوفة من هذه الناحية وهي أنّ أكثرية سكّانها كانت من اليمن أو ممن ينتسبون لليمن. لكنه لم يرتّب على هذا التنبيه نتائج ضرورية. ولعلّه لو عرف اليمن عن كذب عندما كان يضع مؤلفه عن أهمّ مدُن اليمنيين خارج اليمن في العصر الإسلامي الأول، لما فاتته أن يخصّص لذلك ومعناه بالنسبة لماهية المدينة ومصائرهما، باباً مستقلاً.

لقد صدرت لهشام جعيط أخيراً دراسة عن «الفتنة الكبرى» أتطلع وأنا أكتب هذه الكلمات عن كتابه الأول، لقراءتها والاستمتاع بها، كما استمتعت بكتاب الكوفة.